توفيق دياب

(١٨٨٨-١٩٦٧)

(مدرسة الجهاد)

obeikandl.com

نحن هنا لسنا بإزاء شخصية كاتب صحفى ساهم فى صناعة الصحافة المصرية وتأسيس صرحها فقط لكننا أمام شخصية موسوعية عبقرية أنجبها الريف المصرى. نحن بإزاء الثائر والمتمرد والمتصوف المجاهد الكبير الأستاذ محمد توفيق دياب الذى كان قيثارة طاهرة صافية نقية تعزف للوطن أنشودة الحب والفداء، كانت مواقفه السياسية والوطنية والصحفية نابعة من الوطنية الخالصة ومناصرة الحق وشجاعة الموقف ونصرة الضعيف فكان يهاجم سلوك الإنجليز فى مصر وظلمهم للشعب حتى أنهم اضطروا إلى إعادته إلى لندن مرتين وهو لا يزال طالبًا يدرس بها. كان دائمًا يرى أن حب الوطن هو حب للمواطنين قبل حب الدور والقصور والزرع والضرع والماضى المجيد والمستقبل السعيد فبالمواطنين ولهم يحيا الزرع والضرع وتشاد القصور وتُعمر الديار وبهم نتذكر الماضى وآمال المستقبل. كان يرى الأستاذ توفيق دياب أن الحرية فى مصر مازالت جنينًا فى غيب القدر ومن الخير أن يعانى المصريون من أجله كثيرًا من الشدائد حتى لا تهون عليهم إذا تمخض عنها اليوم المنتظر ومن منطلق حبه للوطن وإيمانه بقضاياه كان أول الصحفيين والسياسيين البارزين الذين نادوا بإنشاء برلمان مصرى حين كتب مقالاً عام ١٩٢٣ تحت عنوان «البرلمان المأمول» يدعو فيه إلى إقامة حياة نيابية دستورية حقيقية.

وقد انتخب مرتين عضو بمجلس النواب إحداهما بالتزكية والأخرى بعد منافسة قوية مع صديقه ومواطنه الكاتب الراحل فكرى أباظة عام ١٩٣٦ وكسبها منه.

وكان خطيبًا لا يُبارى ويستحوذ على قلوب مشاهديه وسامعيه، يملك ناصية البيان حيث كان توفيق دياب هو چان دارك الوطنية المصرية فى تلك الحقبة من الزمان وكان يؤمن بمقولة سعد زغلول أن دولة الظلم ساعة ودولة الحق حتى قيام الساعة فكان يمثل الصراحة والشفافية والإخلاص فى أروع صورها. وكان أول صحفى يدخل مجمع الخالدين (مجمع اللغة العربية) خلفًا للمرحوم فارس نمر حين تم اختياره بالإجماع عضوًا بالمجمع عام ١٩٥٤ فهو أديب له مدرسته الخاصة فى الأداء التعبيرى. وقد جمع فى كتابه اللمحات بين جوانبه كوكبة من الأدبيات والروحيات والاجتماعيات.

وكان له عظيم الأثر داخل المجمع فكان يعمل فى أربع لجان هى لجنة العلوم الفلسفية والاجتماعية ولجنة الآثار والعمارة ولجنة الحضارة.

وقد وصفه الدكتور طه حسين حين استقبله فى المجمع فقال له: إن الذين يؤرخون الأدب لن يستطيعوا أن ينسوا توفيق دياب.. لن يستطيعوا أن ينسوا اسمك بين الأسماء التى سجلت فى التاريخ الأدبى لنفسها ذكرًا حسنًا رائعًا لك أسلوبك الحار العنيف المتدفق الذى يسبق إلى

القلوب والذى يخلب الآذان والذى ينسجم فيه اللفظ مع المعنى والذى يصور الموسيقى اللغوية والأدبية كأروع ما تكون الموسيقى.

مولده

ولد الكاتب محمد توفيق دياب فى الثامن عشر من مايو عام ١٨٨٨ فى قرية «سنهوت البرك» مركز منيا القمح محافظة الشرقية لثائر من ثوار ثورة عرابى وكان والده موسى بك دياب قائدًا أميتها وحكم عليه بالإعدام ونُزعت منه رتبة «أميرالاى» ونياشينه التى كان يحملها وهو مستشار الخديو فى حِلِّهِ وترحاله فى مصر أو تركيا، ولم ينفذ حكم الإعدام لكنه خُفف وحددت إقامته فى قريته سنهوت.

نشأ توفيق دياب فى منزل يموج بالثورة وفى أسرة تتصف بالكرم الشديد وحسن المعشر والترابط الوثيق بين بعضها البعض، وأرسله والده حينما بلغ الرابعة إلى كُتَّاب القرية فحفظ الختمة الأولى من القرآن الكريم ثم بعث به والده إلى القاهرة فأدخله فى مدرسة الجمالية حتى نال الشهادة الابتدائية ثم قضى تعليمه الثانوى بالمدرسة الخديوية الحكومية ثم تركها إلى مدرسة حرة (خاصة) ظنًا منه، كما يقول الدكتور طه حسين إنها أجدر على مسايرته فى ميوله الخاصة نحو القراءة غير الملتزمة بمناهج محددة ومقررة، إلا أن والده نقله من القاهرة للإسكندرية ليلتحق بمدرسة رأس التين ثم أنهى الدراسة الثانوية والتحق بمدرسة الحقوق إلا أنه لم يكمل الدراسة بها وسافر إلى لندن حيث أمضى خمس سنوات فى دراسة الأدب والخطابة والفلسفة لكنه لم يكمل التعليم فى لندن أيضًا.

توفيق دياب صوفيًا

كان مؤمنًا تغلب عليه النزعة الصوفية المتأملة ومن الباحثين عن الحقيقة، وقد رد على طه حسين حين سأله عن الصوفية فقال: إننى حقًا ذقت حلاوة التصوف ونعمت بنعمته وسموت بسموه عن غرائز وشهوات الدنيا فليتنى أستطيع أن أظل هكذا قريبًا من ربى وكان يردد أدعية الصوفية وكان يسير على درب المتصوف الكبير الإمام الغزالى الذى كان يصف الصوفية بأن أول شروطها هو تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى وقد بدأ الكاتب الصحفى توفيق دياب طريق الصوفية حينما ذهب إلى لندن ليدرس الخطابة والأدب وكان من الممكن أن ينطلق ويعيش على طبيعته حيث الحياة المتحررة من القيود والعادات والتقاليد لكنه اتجه مسلكًا آخر. ففى الجامعة التى كان يدرس بها زميلة له كانت على قدر عالٍ من الجمال والثقافة وكان كل أصدقائه يتمنون لقاءها ومصادقتها. وفى ذات يوم كان توفيق دياب على موعد معها وذهب للقائها وهو فى الطريق وجد لافتة لجمعية

صوفية ترأسها الإنجليزية أنا بيزانت فذهب إليها وسألها عن التصوف فأهدته كتابًا ما كاد أن يقراه حتى غيَّر طريقة حياته وقلبها رأسًا على عقب وانضم إلى تلك الجمعية التى كانت من بين أعضائها كريشنا مينون.

ومنذ ذلك اليوم أصبح عضوًا فى جمعية التصوف العالمى الذى أصبح مقرها الهند. وذهب فى اليوم التالى للقاء صديقته لكنه كان إنسانًا آخر فأخذ يكلمها عن الصداقة والمحبة فى الله والتدين والتصوف.

وقرر توفيق دياب العودة من بريطانيا بعد أن أمضى خمس سنوات بها، ليعمل بالتدريس بالجامعة المصرية وبالفعل جاء إلى مصر وعمل بالجامعة الأهلية خطيبًا محاضرًا حتى استقال منها ليعمل بالصحافة.

توفيق دياب صحفيًا

بدأت حياته الصحفية منذ أن كان طالبًا فى لندن حيث كتب أولى مقالاته الصحفية فى جريدة اللواء سنة ١٩٠٨ وكان طالبًا فى لندن فشجعه أحمد لطفى السيد على الكتابة الاجتماعية فنشر أربعة عشر مقالاً افتتاحيًا فى جريدة بعنوان المدينتان بتوقيع محمد توفيق دياب بجامعة لندن ثم عاد من لندن واتجه بمقالاته وبحوثه الاجتماعية إلى جريدة المقطم ثم جريدة الأهرام بعنوان اليوميات ثم الأخبار أيام صاحبها أمين الرافعى. عمل توفيق دياب بعد ذلك فى تحرير جريدة السياسة مع أحمد لطفى السيد وكان المندوب البرلمانى للجريدة عند إنشائها والتى كانت لسان حزب الأحرار .. ثم انشق دياب عن الأحرار الدستوريين وأعلن وفديته وأصدر صحيفة وادى النيل فى الإسكندرية مع صديقه محمود عزمى وكان معاديًا للوزارة والحكومة فعطلتها فى السادس من ديسمبر سنة ١٩٢٨ فأصدر جريدة الشرق الأوسط فعطلتها الحكومة أيضًا سنة ١٩٢٩ ثم أصدر جريدة النديم ثم صحيفة اليوم، كما شارك فى صحيفة الضياء وظل بها حتى أصدر جريدة الجهاد التى كان لها أكبر الأثر فى شهرة دياب. ويذكر أن المناضل والمجاهد الصحفى الكبير توفيق دياب قد أصدر اثنتى عشر صحيفة وطنية أغلقتها له سلطة الاحتلال والسراى تباعًا.

ولم يكن توفيق دياب المندوب الصحفى فى البرلمان مجرد صحفى يقوم بوصف جلسات مجلس النواب بل إنه ولأول مرة فى الصحافة كان ينتقد ما يدور فى الجلسات حتى أن أحد أقطاب المجلس لم يتحمل انتقاده له فأخرجه عنوة من قاعة المجلس وكتب توفيق دياب هذه الواقعة على صفحات جريدة السياسة بعنوان «شخصى الضعيف وكحيل العين».

مدرسة جريدة الجهاد

فى عام ١٩٣١ استطاع توفيق دياب أن يعقد اتفاقًا مع حزب الغالبية «حزب الوفد» على أن يصدر بلسانه جريدة جديدة فى القاهرة أطلق عليها اسم الجهاد، وكان شعارها حين صدرت أحد أبيات أمير الشعراء أحمد شوقى وهى:

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدًا إن الحيـــاة عقيـــدة وجهـــاد

ومن هذا الشعار يتضح لنا الخطوط العريضة والطريق الذى تنوى أن تسلكه الجريدة فكانت سياسية حتى النخاع وكانت نموذجًا رائعًا لما يجب أن تكون عليه الصحافة الحزبية حيث كانت معارضة على طول الخط للاحتلال والسرايا وكم هاجمت الملك أحمد فؤاد والحكومة ومع بداية صدور الجهاد تفاعل معها الجمهور والقراء ونالت إعجابهم حتى أن أحد الشعراء بعث يهنئ صاحب الجهاد ببعض أبيات الشعر فأخذ يقول:

يا فـخـر أبناء البـلاد تحـيـة لك بالجـهـاد
مـصـر لكم فى شـعـبـهـا حب تغلغل فى الفـؤاد
عـرفتك عونًا فى الصعاب وللشـدائد خـيـر زاد
فـابعث جـهـادك فى الورى واغـمس يراعك فى المِداد
وأرسل بوحى خـيـالكم حـمـمًـا لأعـداء البـلاد

وقد بيَّن توفيق دياب فى افتتاحية العدد الأول بالجهاد منطقة فأخذ يقول: «ويعلم الله أننا لم نؤيد الوفد قط لمجرد أنه الوفد فنحن الذين نؤمن بالله عن بيِّنة ويقين ما كنا لنؤمن بالوفد إلا عن يقين وبيِّنة. ولعبت الجهاد دورًا كبيرًا فى النصف الأول من الثلاثينيات وعلت وعلا اسم توفيق دياب حتى أصبحت من أكثر الصحف توزيعًا وانتشارًا.

ومنذ صدورها فى ١٧ سبتمبر ١٩٣١ خلال عهد إسماعيل صدقى إلى أن توقفت عن الصدور فى عام ١٩٣٨ عاصرت خلال تلك الفترة حكومات عبدالفتاح يحيى ثم وزارة توفيق نسيم الثانية ثم وزارة على ماهر فحكومة النحاس الثالثة ثم الرابعة وأخيرًا فترة من وزارة محمد محمود سنة ١٩٣٨.

وكانت قضيتها الأساسية هى تحقيق الاستقلال وإقامة الدستور وحياة نيابية حقيقية وقد دافعت عن شباب ١٩٣٥ فى ثورتهم ضد الإنجليز، وكانت الجهاد مدرسة صحفية بكل المقاييس وكانت منبرًا للعديد من الكُتَّاب الكبار أمثال العقاد ومحمود عزمى وطه حسين وشكيب أرسلان وخاضت الكثير من المعارك الصحفية وكان من بينها معركة سد جبل الأولياء كنموذج

للمعارك السياسية ومعركة فصل الدكتور طه حسين من وزارة المعارف ومعركة توفيق دياب وعبدالقادر حمزة سنة ١٨٣٥ ومعركته مع أحمد ماهر ومعركته مع فكرى أباظة ثم معركته مع النحاس باشا.

واهتمت الجهاد بالقضايا والشئون العربية وقضية فلسطين واهتمت بزعماء الدول الإسلامية مثل نضال المهاتما غاندى والزعيم الليبى عمر المختار.

ومن ابتكارات جريدة الجهاد فى أسلوب التحرير الصحفى والإخراج والألوان والصور أنها كانت أول جريدة تضع المانشيتات فوق رأس الجريدة يوميًا وكانت تطبع منشتاتها بالألوان لا بلون واحد وتعددت ألوان التحرير الصحفى بها ما بين المقال الصحفى وفن الحوار أو الحديث الصحفى والمقال الافتتاحى والتحقيق الصحفى.

ومن الطريف أنها كانت أول جريدة تبتدع «كوبونات الياناصيب» التى حققت انتشارًا كبيرًا. وقد صدرت الجهاد فى أوائل نشأتها فى ثمانى صفحات من القطع الكبير (٦٤×٥٠ سم) واستمرت كذلك حتى بدأت منذ ١٩٣٥ فى الصدور فى ١٢ صفحة وزادت صفحاتها إلى ١٦ صفحة حينما تم تركيب المطبعة التى تم شرائها من ألمانيا لدار الجهاد والتى يسرت استخدام اللون الأحمر كترويسة للجريدة وطبع الصور وكانت الصفحة الأولى تحوى عددًا كبيرًا من الأخبار الهامة والمقال الافتتاحى بقلم محمد توفيق دياب بعنوان «حديث الصباح» وكان أحيانًا يكتبه محمود عزمى أو عباس العقاد أو عبدالرحمن عزام والعمودان على يسار الصفحة كانا للشئون الخارجية والاقتصادية والمالية وكان يحررهما أشيل صيقلى بك والصفحة الثانية كانت مخصصة لبرقيات الجهاد الخاصة وهى بانوراما لأخبار العالم المختلفة التى ترسلها وكالات الأنباء العالمية.

أما الصفحة الثالثة فكانت لأخبار البلاد العربية والإسلامية والصفحة الرابعة كانت للأنباء الداخلية والحوادث المثيرة، والصفحة الخامسة كانت لأخبار المجتمع من زواج ومواليد ووفيات ثم باب كل شىء للأخبار الخفيفة من جميع أنحاء العالم ثم الصفحة السابعة لباب الأدب وأقصوصة الجهاد ثم الصفحة الأخيرة كانت تضم الألعاب الرياضية ثم أصبحت الصفحة الأخيرة تخصص للصور الصحفية المختلفة فيما بعد واستخدمت أبوابًا أخرى بعد ذلك مثل صفحات المرأة والصفحة العلمية والسينما والمسرح وكان لطه حسين مقال فى رمضان باسم حديث رمضان وحديث الأربعاء، هكذا جريدة الجهاد كانت دائمة التطور والتحديث فى فنون التحرير والطباعة، فكانت بحق مدرسة صحفية جديرة بالمنافسة وكانت من أهم الصحف الحزبية آنذاك.

توفيق دياب والكتابة الاجتماعية

كان كاتبًا اجتماعيًا من الدرجة الأولى عبَّر عن هموم المواطن ومشاكل المجتمع فتناول القرية المصرية ومشاكلها، وكتب كثيرًا عن مشكلة مياه الشرب فى القرية وكتب مقالاً تحت عنوان ماذا يشربون، وعن دخول الكهرباء إليها كتب مقالاً آخر. والمرأة وحريتها وواجباتها والأسرة المصرية والعادات والتقاليد المصرية ما لها وما عليها ما بين الإسراف الشديد فى حفلات الزواج وما بين الجنائز المزعجة فى المأتم، هذا بالإضافة لتناوله أيضًا قضايا الشباب وأخلاقياته فى البيت والمدرسة وروح التعاون والنظام والنسق.

وكتب وتعرض لظاهرة الرشوة للموظف العام فى مقالته التى نُشرت عام ١٩٢٣ والتى كانت تحمل عنوان «يا شاويش».

ولم يترك توفيق دياب الكاتب الاجتماعى قضية إلا وتكلم عنها فتحدث فى مسألة التعليم والتعليم الإلزامى وإنشاء المدارس المجانية والاهتمام بها وتكلم عن الناحية التجارية والصناعية والزراعية كنوع من أنواع النهضة بالمجتمع والمواطن.

أسلوبه ومدرسته

يغلب على كتاباته الأسلوب الخطابى حيث كان أول عربى يدرس فنون الخطابة والإلقاء فى لندن ثم عربها على الطبيعة فى القاهرة بإقامة أول معهد للخطابة فى القاهرة. ومن مفارقات الأيام أن كان يوسف بك وهبى تلميذًا فى هذا المعهد وقد طرده توفيق دياب فى أول حصة فى المعهد لشغبه وتعاليه على زملائه. كان أسلوبه حماسيًا يخلو من جمود العاطفة ويرجع الكاتب الكبير أنطون الجميل باشا روعة أسلوب توفيق دياب وبيانه الخطابى إلى كثرة اطلاعه من المناهل الأجنبية والعربية فيقول: وقد ساعده فى أسلوبه الكتابى وبيانه الخطابى ما ادخره من مطالعة كتب الفرنجة من الأفكار والمعانى العصرية وما اكتنزه من مراجعة كتب العرب من ثروة لفظية قلما ظفر بها كاتب. إذا عمد إلى صورة من الصور أو شكل من أشكال البديع خيل إليك أنه ماضى لاستيفائها، أو أنه ذاهب فيها على سبيل الترشيح فى الاستعارة، كما يفعل غيره ولكنه سرعان ما يتركها إلى سواها لأن هناك صورًا شتى يزخر بها خياله وتتدفق على لسانه وقلمه.

كان على سعة من الاطلاع والاستظهار لبعض القواميس العربية مثل «لسان العرب» وداثرة المعارف وفيما يلى بعض الكتب التى ذخرت بها مكتبته وتشير إلى تنوع اتجاهاته فى القراءة «العقد الفريد»، سيرة صلاح الدين ومذهب الأغانى لمحمد الخضرى ونهاية الأرب لشهاب الدين أحمد يسين عبدالوهاب النويرى وهو من الكتب الأدبية القديمة، آمال السيد المرتضى

فى التفسير والحديث والأدب، «شرح مقامات الحريرى» مرآة الحرمين للواء إبراهيم رفعت باشا، سيد قريش لمعروف الأرناؤوط ثلاثة أجزاء، تاريخ الأمم والملوك للطبرى والأغانى للأصفهانى، عصر إسماعيل لعبدالرحمن الرافعى تاريخ مصر لابن إياس. ثلاثة أجزاء. تاريخ اليونان لمحمود فهمى، تاريخ الدولة العثمانية، تفسير المنار، نهج الأدب العباسى الجردلى). ومن الكتب الأجنبية الكثير نذكر دائرة المعارف البريطانية.

رحل الكاتب الموسوعى توفيق دياب بعدما ترك لنا مدرسته الخاصة التى لم يملكها غيره من الصحفيين وهى مدرسة الخطابة والتى كانت تتجلى واضحة على صفحات جريدة الجهاد توفى فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٧.

قالوا عنه:

سعد زغلول:

إن فى جريدة السياسة من هو أخطب منى وهو توفيق دياب.

عباس حافظ (رئيس تحرير جريدة الوادى):

بدأ زميلنا دياب حياته العملية خطيبًا من طراز جديد فإذا هو من هذه الناحية البارزة فيه يطوى جوانحه على قوة كامنة ومواهب مدخرة مستكنة.. قوة الخطيب المطبوع المفصل المجهز فى مصنع الطبيعة لا يحتاج إلى شىء سوى الظروف والمناسبات المطاوعة ليبرز تلك القوة من مكمنها ويخرج تلك المواهب النادرة من مستودعها فى أعماقه فإذا هو غازى الفكر بجنود خواطره وكاشف الأقطار السحيقة والآفاق النائية.

زميلنا توفيق دياب خطيبًا بليغًا يصور للسامعين ما حدث أو ما ينبغى أن يحدث بتلك الدقة التى يحسبون من شدة تأثيرها أنهم كانوا للحادث شهوده. عرضة يومئذ يجمع للخطابة الجليلة السلطان كل موجباتها ويضيف إلى موجباتها براعة إبرازها وحسن تأديتها.. صفاء الذهن وحدة الخاطر ورقة المشاعر وقوة الذاكرة وحضور الحافظة وبلاغة التعبير وجلال البيان ودفعة المنطق..

وأخيرًا موهبة التصور والخيال وحرارة الدم وحماسة الوجدان. لا يكذب، كريمًا لا يضن، بدويًا، حاضر السماحة، عربيًا أخاندى صاحب نزاهة، مستقيمًا لا يبغى عوجًا، مفراحًا على الحالات جميعها مشرق الديباجة مبتهجًا، زين المجالس إذا تحدث ملبيًا داعى المروءة والواجب إذا اشتد الخطب.

السياسى الكبير مكرم عبيد:

ليس من السهل على الكاتب الذى عرف لهذه الشخصية قدرها أن يستوحى قلمه ليصورها كما أنه ليس من الهين على الصديق الذى أحبها أن يستجمع ما دق ورق من ذكرياته ليتمثلها فيستحضرها.. نعم ليس فى طوق النفس أن تتمثل فتستحضر الرجل والصديق والكاتب والخطيب والوطنى بين جدران سجن لا ينفذ إليه النور ولا يشع منه نور ولكننا رغم ذلك قانعون بما بقى لنا من توفيق دياب فقد بقى لنا الكثير بل بقى لنا الكل فى الكل إذا بقيت لنا نفسه. لكل إنسان صفة روحية غالية تميز نفسه كما أن له من ملامح وجهه أو تكوين جسمه صفة جثمانية خاصة تميز شخصه والصفة الغالبة فى توفيق دياب هى الحماسة ذلك الشعاع الإلهى الذى يلقيه فى نفوس بعض الممتازين من بنى الإنسان هى فى الواقع الأصل فى كل نجاح فى كل ابتكار فى كل إيمان فى كل تضحية فى كل نقمة. والعظيم من عرف أن يتعهد تلك البذرة الإلهية بشىء من غرسه حتى يظل النور دائم الاشتعال فى شعوره وفى جميع نواحى نفسه والشعور كالنور لا يكتمل إذا لم يشتعل؛ قلت: إن الحماسة هى الأصيلة فى توفيق دياب والواقع أن كل مناحى تفكيره وآثار جهده فى الحياة إنما هى من ثمار الحماسة التى انطوت عليها نفسه وإلى القراء بعض مظاهر تلك الحماسة فى نواحى حياته ضمن ناحية العاطفة نراه أخلص الناس مودة وأسمحهم عداوة. ومن ناحية التفكير فحماسته الفكرية تتجلى فى قوة التفكير وأيضًا فى اتساع وتشعب مناصبه. ولأنه يجمع بين حماسة الشعور وحماسة التفكير فى أسرع ما يفتقد بما يهديه إلى فكره وما أسرعه إيمانًا بما يعتقد ونضالاً عما يؤمن وجهادًا فيما يناضل وتضحية فى سبيل ما يقاتل؟

ومن الناحية الفنية فهو كالسيل المنهمر كاتبًا كان أو خطيبًا لا يقيده لفظ ولا يحده تعبير بل نراه يكاد يلهب الألفاظ من حماسته فيخيل إليك أن لألفاظه فصاحة ذاتية غير ما استمدت من فصاحته تلك الحماسة حماسة الاعتقاد والإيمان.

ومن الناحية العملية فقد كان لحماسة توفيق دياب أثرها الحاسم فى عمله الصحفى لأنه أقدم - وهو فقير لا يملك غير يقينه وإقدامه على إصدار جريدة من أكبر وأشهر الجرائد فى مصر بل وفى الشرق العربى بأسره وقد أفلح فيما سعى وبارك فيما جنى...

بقيت لنا الناحية السياسية فقد كان للحماسة هنا أيضًا أثرها الفاضل فى نجاحه ولكن أكاد أرى لبعض المتحذلقين من رجال السياسة أو أدعيائها يبتسمون تهكمًا من الجمع بين السياسة والحماسة فالحماسة لديهم إنها هى ضرب من ضروب الانتشار النفسانى الذى يتنافى مع كل اتزان سياسى وفكرى ولذلك تسمعهم يقولون: إن السياسة كل السياسة فى

انتفاء الحماسة.. ولكنهم خاطئون فالسياسة الحقة - وبخاصة السياسة الوطنية - لا قيام لها ولا نمو إلا بتوليد الحماسة وتنميتها والحماسة الوطنية صنوان لا يفترقان وإذا اختلفت أنواع الحماسة فى بدايتها فهى واحدة فى نهايتها. تلك الحماسة هى الشجاعة الأولى بل هى الشجاعة الوحيدة لأنها شجاعة الثبات والعبر لا شجاعة الطبل والزمر.

أنطون الجميل:

يرى أن الشفافية والصوفية التى يتمتع بها توفيق دياب هى أخص صفاته الغالبة فيقول وهو يقدم له كتابه «اللمحات» ولكن نفسه كانت كاللوحة الحاسة يرتسم فيها ما ينعكس عليها من الصور، وكان خياله كالشمع اللين يتطبع عليه ما تطبعه يد الحياة. فظل فى كتاباته وخطبه يضرب على وتر الأخلاق، وقد اقتبسها من ريقه، وعلى وتر المثل العليا، وقد آخذها من دراساته ومطالعاته وهو ما لا يزال كثير الارتياد ولمزرعته فى الريف وكثير الإقبال على القراءة، يغذى حياته المعنوية من هذه وتلك، فيجمع إلى روحانية الشرق ثقافة الغرب مع نزوع طاهر إلى الصوفية والأخذ بالمذاهب الروحية. يبدو لك ذلك فى خطبه ومقالاته وترى أنه يسود ما يكتب وما يقول إيمان متين وطموح إلى المثل العليا. فهو مؤمن بتطور الناس. طموح إلى تحسين حالتهم المادية والمعنوية وهو مؤمن بطبائع الأشياء، طموح إلى تسييرها فى سبيل الخير والصلاح.

الشاعر الكبير عزيز أباظة:

كان رجل ثقافة وفكر ورجل علم ورجل أدب ورجل خطابة ورجل صحافة وفى هذه الحلبات كلها كان سباقًا مسباقًا أكرم الشرف لكثير من منافسيه أن يلحقوا بغباره. لا أن يتدافعوا إلى جواره. كان وهو رجل ثقافة وعلم وفكر من أدقهم نظرًا وأعمقهم غوصًا وأوقعهم على الغرر. عربى لمجاميع من أمهات كتبها العربية والإنجليزية. ثم مترجمات اللغات الأخر فقتلها اختيارًا واختبارًا واستظهارًا وكان وهو رجل أدب علمًا من أعلام الأدب. عب تراثه وذخائره وأسنى اللّه حظه من روائعه. فكتب وصنف فكان شريف الأسلوب. جزل السياقة. عامر المضامين. عالمًا أبلغ العلم بموالج فنه ومخارجه. مهذبًا فيها جميعًا إلى المحاج الوثيقة. وهو قبل ذلك كان معنى بجمال الجرس كأنما يخطب وهو يكتب ومعنى كذلك بأن يوائم بين الكلمة تقع بين الكلمتين. والفقرة تنساب بين الفقرتين حتى تجمع بين أطراف الأسلوب كله وشائج قارة مطمئنة تحكم أسرة وتضفى الاستواء بين مقاطعه.

زكى المهندس:

كان قلمه فى الكتابة، كلسانه فى الخطابة، أسلوب عربى مبين وعبارات سليمة. ومقتبسات تدل على ذوق أدبى رفيع وتدل على إحاطة تامة بالأدب العربى قديمه وحديثه وكان أكثرها ما يعجبنى فى الفقيد حُسن اختياره لعناوين مقالاته.. كان العنوان موجزًا أنيقًا معبرًا.. أذكر أن وزير الداخلية أصدر يومًا أمرًا بمنع النحاس باشا من غشيان المساجد يوم الجمعة حفاظًا للأمن العام فظهرت الجهاد فى اليوم التالى وفى صدرها عنوان بالخط الأحمر يقتبس فيه قول الله تعالى فى سورة العلق: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ وبعد شرطتين كبيرتين اقتبس قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾.

مجمع اللغة العربية:

قضى نحو ثلاثين عامًا يملك الأسماع بصوته العذب وإلقائه الأخّاذ ويستولى على القلوب ببيانه الواضح ومنطقه القويم، اتخذ من صحيفة الجهاد منبرًا يرسل فن الكلمة تنير الطريق وتوجه نحو الرأى السليم. أبلى بلاء حسنًا فى سبيل مبدئه ودافع فى حماس من عقيدته. وسما إلى مستوى رفيع بين قادة الرأى من كبار الصحفيين ثم انضم فى السنوات الأخيرة إلى أسرة الخالدين وأسهم فى تطوير اللغة لمقتضيات العصر وحاجات العلم والحضارة. وكان يؤمن بأن الفكرة تزداد وضوحًا إذا ما صيغت إلى قالب لفظى هين وأن الأمة تنهض وتتقدم بنهوض لغتها وتقدمها.

فقدناه فقدنا فيه الأدب الصافى والخلق السمح والزميل الكريم.. تغمده الله برحمته وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء.

والأمة المصرية - تغلى حفيظتها

توفيق دياب

لله در أمتنا الأصيلة!

ما كادت تسمع من المذياع، أو تقرأ فى الصحف أمس - ذلك الإنذار الحازم الحاسم، الذى أرسله رئيس مصر إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن: بأنه بعد العدوان المدبر المتكرر على حدود بلاده، وحدود الدول العربية الأخرى - أصبحت الحكومة المصرية «مضطرة إلى معالجة الأمور بنفسها».

«وهى لن تتوانى فى استعمال قواتها المسلحة، سواء البرية أو الجوية أو البحرية. لتحافظ على سلامتها، ولإقرار السلام فى المنطقة..

بعد أن عجز مجلس الأمن عن منع تكرار هذه الحوادث».

نقول ما كانت الأمة المصرية الأصيلة، تسمع أو تقرأ هذا الإنذار الموجه إلى أرباب إسرائيل وصانعيها من الدول الكبرى - حتى اشتعلت فى نفوس أبناء مصر من كل طائفة وسن. وكل غنى وفقير، وكل طالب وصانع، وكل تاجر وزارع.. نار مؤججة من الحمية والحفيظة والغيرة: هل هانت علينا ديارنا وأهلونا، فرائس تأكلها الذئاب أو الكلاب، وأصبحنا مستضعفين يجرؤ على انتهاك حرماتنا وإهدار دمائنا.. طراز وضيع من العصابات الغادرة، سماها الرئيس السابق ترومان «إسرائيل» قبل أن يلدها، واعترف بها دولة بعد ولادتها بساعة واحدة!

والمستر ترومان هذا - هذا الذى جعل من نفسه قابلة تلقت خروج هذا المولود الناعس من رحم الشيطان.. مستر ترومان هذا، تسعفه أعصابه المضطربة أو جرأته المخزية. على أن يكون - دون غيره - هو الذى يتنبأ منذ شهرين تقريبًا: بأن التوتر القائم فى الشرق الأوسط بين مصر وإسرائيل، قد يتسبب عنه إشعال الحرب العالمية الثالثة!!

يا سبحان خالق العجائب من الناس والأحداث!

مستر ترومان يتلهف على ميلاد ولده هذا كتلهف العقيم رزق غلامًا بعد اليأس والقنوط. وبعد سبع سنين أو ثمان من عمر هذا الطفل الذى غذاه أبوه من مال السحت والحرام. وبعد أن نشأه أسوأ تنشئة ورباه أحط تربية.. يجىء الوالد البار بعد ذلك، فيبشر الدنيا - ما أنكدها من بشرى - بأن مسلك هذا «الإبليس» الصغير، قد يسبب حربًا عالمية ذرية لا تبقى ولا تذر!

والآن نحن أولاء نذكر نبوءة مستر ترومان!

إن «بن» ترومان، أو «ابن» ترومان المسمى إسرائيل، لا يكاد يهجع يومًا دون أن يعتدى بالمدافع والدبابات ومئات الجنود أو ألوفها على موقع ما على حدود مصر أو حدود سوريا أو حدود الأردن!

ومصر على رغم هذا العدوان «المدبر المتكرر» تحاول جهدها أن لا تثيرها حربًا محدودة أو حربًا شاملة:

١ - لأن مصر الثورة تريد السلام لمصر وللعالم كله، كما يقرر الرئيس ذلك غير مرة فى كل مناسبة وكل مكان.

٢ - ولأن مصر الثورة توافق الرئيس ترومان - فيما أظن - على احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة بسبب أى حرب فى الشرق الأوسط بين العرب وهذه الشقية المتجنية إسرائيل.

من أجل ذلك حاول الرئيس جمال عبدالناصر وإخوانه من قادة الثورة، أن يتفادوا أسباب الاشتباك فى معارك واسعة عنيفة بين هذا العدو المغامر وبين مصر أو دولة عربية حليفة!

لكن النفس المصرية العربية قد بلغت الحلقوم..

وأصبحت الهجمات الغادرة المفاجئة فى ظلام الليل بألوف من الجنود، ومئات الأطنان من السلاح الثقيل والعتاد.. على عشرات من جنود الحراسة المنقطعين عن القوات المسلحة فى تكتاتها المركزية..

أصبحت هذه الهجمات المدبرة المتكررة، ولا سيما هذه الغدرة الكبرى التى وقعت فى سوريا منذ ثلاثة أيام، وارتكب فيها المجرمون عدوانًا فظيعًا على أنفس المدنيين وأموالهم. كما كان شأنهم القديم فى الإجرام المنكر الشنيع التى طالما ارتكبوه فى حربهم الماضية.

نقول: أصبحت هذه الحالة لا تحتمل وأصبح أصدق ما يمكن أن يقال فى الموقف الحاضر: تلك الكلمة التى قالها الرئيس عبدالناصر:

«لا يمكن قيام سلام من جانب واحد».

من أجل هذا كله لم تستطع مصر فى شخص رئيسها أن تقبل الذلة باسم السلام.

وأن تظل هكذا مقيدة بقيود الشرف واحترام الهدنة، فى حين أن عدونا يحتقر الشرف كعادته المشهورة، ويدوس شروس الهدنة بالأقدام. بل يدوس بالأقدام قرارات مجلس الأمن قديمها وحديثها على السواء.

ومصر حين ضبطت أعصابها هذا الوقت الطويل، حتى يتبين مبلغ قدرة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن على ردع هذه العصابات المعتوهة عن سفالاتها المطردة.

مصر أثناء هذا الوقت الطويل الذى ضبطت فيه أعصابها قدر استطاعتها فلم تكل الصاع لعدوها صاعين أو أكثر.. مصر لم تكن عاجزة عن أن تتولى بنفسها عقوبة هذا «الإبليس»

المتمرد أشد العقاب.

آما الآن وقد ثبت لمصر وللبلاد العربية أن لا أمل فى قدرة مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة فى كف الغادر عن الغدر، ومنع المغامر المقامر عن المغامرة والقمار.

فها هى ذى مصر العزيزة تتقدم صفوف العرب أجمعين إلى هذا الإنذار الحاسم الحازم. الذى لا جواب بعده إلى إسرائيل سوى ألسنة الأسلحة المصرية من البر والجو والبحر والله ناصر والله حفيظ!

كل هذا منطق سليم ونهج عظيم.

ولكن الأمة المصرية - وهى تشهد كل هذه المآسى المدبرة المتكررة...

الأمة المصرية التى تثق بجيوشها وبقواتها المسلحة كل الثقة، توقن بكفايتها وبسالتها كل اليقين.

هذه الأمة الأصيلة العظيمة قد بلغت حميتها وحفيظتها وغيرتها على الوطن وللوطن، مبلغًا قد شمل كل فتى وفتاة، وكل سيدة ورجل، حتى كأنما كل إنسان منهم أصبح يستشعر روح التضحية بالنفس قبل المال، وبالشيخ قبل الفتى فداء لمصر الحبيبة خاصة، ولأقطار العروبة الشقيقة عامة.. إلى أن يعود لهذه الأوطان مجدها التليد - مضافًا إليه أمجاد طريفة تساير فى ضيائها ركب الحضارة وعزة الحرية وبحبوحة الرخاء!